الرسالة والرسول

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾

[آل عمران ١٥٩]

* «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

«حديث شريف»

obeikandl.com

obeikandl.com

الرسالة والرسول

لقد جاء محمد بن عبد الله رسولاً للبشرية كلها.. ليس لأمة دون أمة.. لأن ديانته هى الديانة التى جمعت جوهر كل الأديان، ورسمت الخطوط العريضة لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان فى علاقته بخالقه وعلاقته بالكون، وعلاقته بالآخرين، وما ينبغى أن يعرفه ويعمل به من أجل دنياه وأخراه.. ولا ينبغى لمن يؤمن بالإسلام أن يعبد إلا الله جل شأنه وحده.. فليس له شريك فى الملك.. وهو وحده الذى حدَّد للإنسان عمره على هذه الأرض.. وهو الذى يُردّ إليه الأمر كله.

وليس هناك واسطة بين العبد وربه.. ولا كهنوت فى الإسلام، ولكن على المرء أن يعرف أمور دينه ويتفهمه.. ولا يجرى وراء القشور.. بل عليه أن يتمسك بالجوهر.

لقد حمل سيد الرسل والأنبياء رسالة الإسلام وبلغها على أجمل وجه، وعانى فى سبيلها ما عانى مما يفوق قدرة الاحتمال البشرى.. وكانت رسالته هدية الله إلى البشر، إذ بعث إليهم رسول الرحمة ليكون للناس بشيرًا ونذيرًا.

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ

آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وجاء النبى العظيم الخاتم ليضع الأمور فى نصابها.. فالدين فيه كل المقومات التى تجعل من الإنسان إنسانًا فيه من الإنسانية ما يبعده ويرفعه عن مرتبة الدواب، ويقربه إلى صفوف الملائكة.

دين لا يجحد العقل ولكن يعلى من قدره.

دين يدعو أصحابه إلى قراءة كتابة الكون والتأمل فيما صنع الله، حتى يمكنهم أن يستنبطوا القوانين التى تحكم الأشياء وبذلك يتقدم العلم إلى ما لا يمكن أن يخطر على بال.

فيه ثوابت لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وفيه متغيرات ليتمكن العقل الإنسانى من استنباط مستجدات الحياة، ومن هنا فقد فتح باب الاجتهاد على مصراعيه لتستفيد منه كل العصور وتنتفع بالمتغيرات فيتجدد الفكر الإنسانى، ويساير كل عصر وكل زمان.

وهذا الدين السمح الذى لا يكره المؤمنون به غيرهم على الدخول فيه، كان واحة يتمتع فى ظله الجميع.

وكانت شخصية الداعية الأعظم عليه الصلاة والسلام فى لينه ورحمته وحبه مثالاً شامخًا للإنسان الكامل الذى زادته النبوة عظمة وجلالا، فإذا بالضعفاء والفقراء يلوذون به، ويجدون فى قلبه الكبير متسعًا لشفاء آهاتهم المكتومة ويحثهم على واقع جميل تصبح الحياة

جديرة بأن تعاش، ورأى فيها المتجبرون والطغاة وعتاة الكفر صاحب شخصية قوية آسرة لا يثنيه عن الحق كل ما توعدوه به من بطش وتنكيل.. إنه صاحب المواقف الخالدة التى لا تعرف أنصاف الحلول.

إنه القائل لعمه أبى طالب:

«والله يا عماه.. لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وقد وصفه ربه جل شأنه بقوله:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكيف لا تلتف حوله العقول وقد كان حديثه تطبيقا حيًا لسلوكه، فلم يقل شيئًا ويفعل شيئًا آخر.

إنه القائل:

«إنما أنا عبد آكل وأجلس كما يأكل العبد ويجلس، وأنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دَيْنا أو ضيعة فإلىَّ وعلىَّ».

مثل هذه الشخصية الآسرة المؤهلة تأهيلاً عظيمًا للقيام بأعظم رسالة عرفها الوجود كان لابد لها أن تغزو كل قلب وكل عقل.. وتصبح فى نظر المؤمنين أحب إليهم من أنفسهم.

إنه نبى بشر:

لم يعش حياة الملوك ولا الأباطرة عندما دان له الجميع بل عاش كواحد منهم وإن كان أزهدهم وأرأفهم وأرحمهم بالناس.

وكان الإسلام هو خلاصة كل الديانات السابقة عليه، ومكمل لها ليكون الدين الخاتم، يقول تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨].

فالإسلام إذن يَجُبُّ كل الرسالات السابقة ويسودها.. وهو يقوم على ركنين: العقيدة والعمل.

العقيدة وتعنى الإيمان بالله الواحد الذى لا شريك له.. ولا عبودية لغيره وهو القاهر فوق عباده وليس كمثله شىء وهو يدرك كل شىء.. ويعرف أسرار كل شىء.. ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

والله مع كل قدراته يحب عباده، ويهديهم إلى سواء السبيل، لأنه يقول عن نفسه جل علاه:

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

والإسلام يصور لنا عالم الغيب على أنه عالم به من الملائكة ما يسبحون الله ويقدسونه ولا يعصون الله ما أمرهم.

وفيه أيضًا عالم الشياطين الذين يحاولون تضليل الناس وغوايتهم.. كما أن هناك عالم الجن المكلفين بالعبادة ومنهم الخيرون ومنهم الأشرار.

وعلى الإنسان فى دنياه أن يحاول أن يتشبه بالملائكة فى طاعتهم لله دون أن ينسى أنه إنسان خلقه الله جل علاه لعمارة الكون، فلا ينسى نصيبه من الدنيا بعد أن يؤدى ما عليه من فروض فرضها الله عليه، كالصلاة والزكاة وصيام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا.. لأنه بأدائه هذه الفرائض يصبح إنسانًا طائعًا للخالق جل علاه.

ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.. والإنسان بطاعته لله جل علاه إنما يعمل لنفسه، ويجزى بحب الله والناس له فى الدنيا، والجنة فى الآخرة، وإن عصى الله باقترافه ما حرم عليه من قتل وزنا وشهادة زور، والضرر بالناس سواء بالسرقة أو باغتيابهم ونهب أعراضهم، وشرب الخمور.. وكل النواهى التى نهى عنها دينه الحنيف، يصبح فى زمرة الذين يكرههم الله ويكرههم الناس ومصيرهم جهنم وبئس المصير.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

[فصلت: ٤٦]

ويقول القرآن الكريم ببيانه المعجز وهو يصف الناس بين الخير والشر، والهدى والضلال:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس: ٢٦، ٢٧].

فأصول الإسلام تتمثل فى العقيدة التى يجب أن يؤمن بها المسلم وهى عقيدة التوحيد الخالص، والعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ولا يوجد كالإسلام دين رسم المنهج السليم للمؤمنين به.. سواء فى علاقاتهم مع خالقهم والتقرب إليه بما فرضه عليهم من عبادات، ومراعاة الخالق العظيم فى معاملاتهم للناس.. فالمؤمن لابد أن يتقى الله فى كل صغيرة وكبيرة، فيراعى العجزة والأيتام والمرضى، ويرحم الضعيف، كما رسم سلوك المؤمنين فى غض البصر، والبعد عما يُذهِب العقل من خمور ومسكرات، وألا يرفع المسلم صوته، ولا أن يمشى فى الأرض مختالاً فخوراً.. كل هذه السلوكيات الرائعة

موجودة فى آيات القرآن الكريم، تنشر عبيرها وشذاها فى مجتمع المؤمنين فيغدو مجتمعًا قويًا متماسكًا.. فيه العدل والتكافل الاجتماعى.

ولنقف عند بعض الآيات الكريمة التى تحث على طهارة النفس حتى تسمو وتعرج إلى سماء النقاء. إنه يصف المؤمنين بقوله:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ – ٧٠].

إن غاية الإسلام هى إقامة المجتمع الإسلامى المثالى الذى لا ترتفع فيه أنات مظلوم، ولا صرخات محتاج، ولا أنين مقهور.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وتبلغ عظمة هذا الدين القمة عندما يطلب من الإنسان أن ينمى

ملكاته العقلية، وأن يكون إيمانه عن يقين كامل، فإن كان الإيمان مقره القلب، فإن على الإنسان أن يتدبر بالعقل ما حوله من الموجودات.

فالكون فى نظامه البعيد، والنجوم والكواكب فى أفلاكها، وكل ما حول الإنسان من موجودات لا يمكن أن تأتى عبثًا فإن وراء هذا النظام الدقيق فى الكون الخالق الأعظم الذى قدر الأمور، ووضع كل شىء فى نظام رائع دقيق.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

إن ما جاء به الإسلام من دعوة لاستخدام العقل فى فهم كون الله، وقراءة هذا الكون والنهى عن جهالة الجاهلية وما فيها من خرافات وأساطير لا تنير طريقًا ولا تفتح أفقًا ولا تؤدى إلى واقع مستنير.

الإسلام يفتح كل الآفاق نحو العلم والتقدم والمدنية والازدهار ويدعو إلى قراءة كل ما فى الكون من محسوسات ومعرفة القوانين التى تحكم المادة، والحث على فهم العلاقة بين الموجودات حتى تعرف عظمة الخالق الذى حقق لنا كل شىء، وأودعنا العقل الذى نتعرف به

- حسب إمكانيات هذا العقل ـ ما يمكِّننا أن نعيش حياتنا، ونتقدم علميًا وحضاريًا، دون أن ننسى رحيق الروح التى تجعل للحياة معنى ومذاقًا.

فالإسلام وهو يحثنا على العلم والمعرفة يجعلنا لا ننسى أن الحياة المادية وحدها لا تكفى، بل أن المادة وحدها تغرق الإنسان فى الأوحال والطين، ولكن بجانب لمسات الروح وشفافية هذه الروح عن طريق العبادات يصبح الإنسان وهو يعيش حياته يسمو بروحه إلى معارج الملائكة.

والرسول العظيم يحدثنا عن فضل العلم والعلماء حتى تتجه أمته نحو مناهل النور، ومنابع القوة ولا تعيش فى ظل التخلف والجمود فيقول فيما قال من أحاديث:

* «العلماء ورثة الأنبياء».

* «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

* «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة».

ويعلمنا الرسول عليه الصلاة والسلام كيف نعرف الله عن طريق العبادة.. وكيف نعرف الناس عن طريق ما شرعه كتاب الله من حقوق وواجبات، ومن المعاملات: من إرث وزواج وعلاقات اجتماعية، فى ظل مجتمع أساسه الشورى، والشورى ضدد الاستبداد

والقهر والطغيان الأقوى، ثم يفتح المجال على مصراعيه للاجتهاد، حتى تظل الدعوة الإسلامية صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان.

فعندما بعث الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام معاذ بن جبل إلى اليمن قال له:

«كيف تصنع إذا عرض عليك قضاء؟»

قال: أقضى بما فى كتاب الله.

قال: «فإن لم تجد؟»

قال: فسنة رسول الله ﷺ.

قال: «فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟»

قال: أجتهد رأيى ولا آلوا.

قال: فضرب بيده فى صدرى وقال: «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله».

والفكر الإسلامى فكر رحب، فقد انتشر بسرعة الضوء شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، يعطى للشعوب التى دخلته نور الإيمان ونور العقل ويأخذ من الحضارات الأخرى ما لا يتنافى مع أصوله وقواعده، فاتسعت رؤية المسلمين، ونهضوا نهضة رائعة.

وإذا كان الدين الخاتم قد رسم طريق المسلم لمعرفة دينه معرفة مستنيرة بلا غلو ولا تطرف، ورسم زوايا المجتمع الإسلامى بما فيه

من قيم دينية واجتماعية وعقلية، فقد نظم الإسلام العلاقة الأسرية على أكمل وجه، فقد رفع المرأة إلى مكانة لم تصل إليها فى أحدث القوانين الوضعية، ولم تعد المرأة ينظر إليها على أنها شىء هامشى لا كيان له، ولكن أعطى الإسلام للمرأة حقوق الرجل نفسها، وجعل الزواج نعمة من نعم الله على عباده.

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾** ﴾ [الروم: ٢١].

وأصبح للمرأة فى ظل الإسلام شخصيتها المستقلة، فهى حرة فى العمل وإدارة مالها:

﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ** ﴾ [النساء: ٣٢].

بل إن القرآن الكريم وهو يدعم الأسرة وضرورة الحفاظ عليها يرى أن أبغض الحلال عند الله الطلاق، فإذا استحالت العشرة وكان لابد من الانفصال فإن ذلك يكون بالحسنى، وألا تنكر حقوق المرأة، والقرآن يقرر ذلك بقوله:

﴿ **فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ١٩].

وإذا تعسرت العشرة يقرر ضرورة العمل على الصلح، بأن يرسل كل طرف حكمًا حتى تحل صعوبات الزواج، فإذا استحالت كل هذه

المحاولات ولا مناص من الطلاق.. فعلى الطرفين مراعاة أوامر الله تعالى:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

وإذا كانت هذه هى صورة المرأة فى مرآة الإسلام، فإن المقارنة مع وضعها فى الديانات السابقة تكون مقارنة ظالمة، لأنه كان ينظر إليها على أنها فى وضع أدنى من وضع الرجل، وأنها خلقت من أجل الرجل، ولم يخلق الرجل من أجلها!

ولنقف مثلاً عند ما أورده الأستاذ أحمد طاهر فى كتابه (الأناجيل دراسة مقارنة):

(والواقع أن عيسى لم يقل ولم يفعل شيئًا ليقلب شريعة موسى، خاصة بالنسبة لقوانين الحرب والقتال، وتعديل نظام الرق فى الأخذ بيد المرأة ورفع منزلتها فى المجتمع، كما أنه لم يفعل شيئًا عن تعدد الزوجات، وكان هذا التعدد مباحًا إباحة مطلقة وبدون حدود فى أيامه، وفى عهد المسيحية الأولى، بل كان مباحًا بين المسيحية فى مصر العليا حتى مائة سنة مضت).

وكان (بولس) الذى يعتبر بحق مؤسس المسيحية كما فهمها المسيحيون ويعتنقونها يرى المرأة مجرد متعة وفتنة، بل أنزل اللوم كله

لسقوط الإنسان وتدهور الخليقة واقتران المعصية، وإليكم ما نقرأه فى رسالة بولس الأولى إلى (تيموتاوس) إصحاح ٢ فقرة ١١ ـ ١٥:

(لتعلم المرأة وهى ساكنة خاضعة، وأنا لا آذن للمرأة أن تتعلم أو تتولى مركزًا ذا مسئولية فتسلط فيه على الرجل، بل يجب أن تكون مذعنة صامتة، فآدم خلق أولاً وبعده خلقت حواء ولم تدخل الغفلة على آدم، بل أدخلت على المرأة وأمكن غوايتها ولم تتخلص منها إلا بحملها الأطفال وولادتهم إذا ما ثبتت المرأة فى إيمانها ومحبتها والتزامها بالعقل).

وجاء فى رسالة بولس الأولى إلى أهل (كورنثوس) إصحاح ١١ فقرة ٧ ـ ١٠:

(لا ينبغى للرجل أن يغطى رأسه فهو صورة من الله ومن يجده، ولم يخلق الرجل من المرأة بل خلقت المرأة من الرجل، ولا خلق الرجل من أجل المرأة بل خلقت المرأة من أجل الرجل، ولهذا السبب لا يجب أن تمثل المرأة مركزًا ذا مسئولية) الترجمة عن الإنجليزية.

ويورد بعض ما قاله من يعرفون فى المسيحية بالقديسين عن المرأة:

قال القديس (يوحنا الدمشقى): (المرأة هى نتاج الكذب والموبقات، وهى الحارسة على أبواب جهنم.. عدوة السلام فبسببها فقد آدم الجنة).

وقال القديس (سبريان) فى المرأة:

(المرأة هى الوسيلة التى يستخدمها الشيطان لتمتلك أرواحنا).

وقال القديس (أنطونيوس):

(المرأة هى ذراع الشيطان وصوتها فحيح الأفعى).

وقال القديس (جريجورى) العظيم:

(المرأة تنفث السم كالثعبان، والحقد كالتنين).

كانت النظرة للمرأة نظرة مهينة لها ولإنسانيتها.. على عكس الإسلام الذى يرى فى المرأة مخلوقًا كريمًا مسئولاً عن نفسه، ومسئولاً عن أولادها، لا تفرقة اطلاقًا بينها وبين الرجل ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾**﴾ [النساء: ٧].

وما أكثر آيات القرآن الكريم التى تقرر حقيقة تكريم المرأة ونديتها للرجل فى كل الأمور، إلا ما تختلف فى طبيعة كل منهما عن الآخر:

﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾**﴾ [التوبة: ٧١].

فكل هذه القيم والفضائل التى نادى بها الإسلام جعلته الدين

الخاتم الذى يصلح به أمر الإنسان فى دنياه وآخراه، ويكفى أنه أزال غشاوة الجاهلية بأن رفع من عقل الإنسان وجعله لا يستذل لآلهة من جماد صماء، إذ يخضع لتقاليد لا تتفق مع جلال العقل الإنسانى.

بل إن الإسلام كرم الإنسان إذ جاء بكل الوسائل التى تقضى على الرق.. فعتق الرقيق كان مما يُتقرَّب به إلى الله.. وإذا أنجبت الأمة من سيدها أصبحت حرة، وأولادها أحرارًا، بل فى إمكان العبد أن يكاتب سيده حتى يستطيع أن يتحرر من الرق، وبجانب كل هذه القيم الرفيعة التى جاءت فى الإسلام فقد احترام الحرية الإنسانية، فلا إكراه فى الدخول فى الإسلام:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس: ٩٩].

وكانت مبادئ الإسلام كما جاءت فى الكتاب والسنة مطبقة تطبيقًا عمليًا فى ظل النبوة والخلافة الراشدة، ومن هنا فقد انتشر الإسلام بعد أن اقتنعت به العقول فتربع على عرش القلوب.. وامتد نفوذه فيما بين الصين حتى الأندلس.. وهذه التعاليم الرائعة التى جاء بها الإسلام ما كان يمكن أن يقف فى سبيل انتشارها عائق.

لا يمكن لعباد الأوثان أن يصمدوا أمام دعوة التوحيد، ولا يمكن لأصحاب الديانات التى حُرفت أن تعوق هذا الدين الخاتم نفسه

سوف يجد فيه وفى سلوكياته التجسيد الحى للقرآن الكريم.

لقد رأى الناس رسول الله ﷺ على هيبته وجلال شخصيته يعيش كواحد منهم.. يعيش على الكفاف، وما أكثر الأوقات التى كان لا يوجد فى بيت الرسول ما يطعم به أهله، حتى لقد قالت أم المؤمنين عائشة:

(كان يمر الهلال ثم الهلال ثم الهلال ولا يوقد ببيت رسول الله نار!) إنه الزاهد العظيم الذى قال:

«كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

ولا يمكن لمن يشعر أنه غريب فى الدنيا، أو عابر سبيل أن يتجبر ويطغى ويعيث فى الأرض الفساد، ولا يمكن لإنسان يؤمن بأنه غريب أو عابر سبيل أن يكنز الذهب والفضة والأموال ولا يصرفها فى الوجوه التى حددها شرع الله.. ففيها حق معلوم للسائل والمحروم.

ولا يوجد إنسان يؤمن بأنه غريب وعابر سبيل فى الدنيا إلا ويحاول أن يتقرب إلى الله بأحسن الأعمال ويلين جناحه للمؤمنين.

لقد جاء إلى رسول الله من خراج اليمن تسعون ألف درهم، فما قام من مجلسه إلا بعد أن أعطى من هذا المال لكل صاحب حق فيه حقه، ولم يأخذ لنفسه شيئا.

وعائشة رضى الله عنها قالت عنه:

(لم يمتلئ جوف النبى ﷺ شبعًا قط، وإنما كان فى أهله لا يسألهم طعامًا ويشتهيه، أن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب).

وتبلغ الرحمة بهذا الرسول العظيم القمة، يوم رأى شيخًا عجوزًا ذهب إلى بيت الله الحرام وقد ظهر الإعياء عليه وقد سار مستندًا على رَجُلين، كان الرجل قد نذر أن يحج إلى بيت الله ماشيًا!

وعندما علم الرسول ذلك قال:

«إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنى». وأمره أن يركب.

والنبى العظيم مع زهده وكثرة عبادته، وحبه وأشواقه العظيمة التى يشعر بها عندما يتعبد إلى الله.. كان مع كل ذلك يحب العمل.

ويحث أصحابه على ألا يكون أحد منهم عالة على الآخر.. إنه يقول عليه الصلاة والسلام:

«اليد العليا، خير من اليد السفلى».

ويقول للناس:

«لأن يأخذ أحدكم حبله إلى الجبل، فيأتى بحزمة من الحطب يحملها على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

بل إنه يقول حتى يعرف الناس معنى السعى وراء لقمة العيش وأن الحياة لابد أن تعاش والإنسان فيها عزيز كريم:

«إن من الذنوب ذنوبًا لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ويكفرها العمل والغم بالعيال».

والعمل عند الرسول الخاتم لابد أن يقوم به الإنسان وهو يراقب الله فى عمله.. فلا روتين.. ولا تعذيب لعباد الله.. وكل هذا يندرج تحت واجب المسئولية للعامل وعليه أن يتقن عمله، واتقان العمل هو أن يتقنه على أكمل وجه بما يرضى الله ويرضى الضمير.. إنه يقول:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».

وقد ركز عليه الصلاة والسلام على أهمية سيادة العدل.. حتى يشعر الناس جميعًا بالأمن.. فلا أمن مع ظلم.. ولا أمن مع طغيان.. ولا أمن مع فقر.

وعلى المجتمع ألا يعيش أى فرد من أفراده وهو يشعر بوطأة هذا الظلم عليه.

وفى ظل مجتمع الإسلام لابد أن يسود العدل دون النظر إلى طبقات الناس، فالكل أمام القانون الإسلامى سواء، لا فرق بين غنى وفقير، أو قوى وضعيف وصاحب سلطان ومن لا سلطان له. وما كان رسول أبدًا يرضى أن يتدخل أحد فى حد من حدود الله وهو القائل: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف منهم تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد... وايم الله لو أن

فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

ومع كل ما اتصف به من سمات الرجولة والنبل والفضائل كان أكثر الناس تواضعًا، وقد قال لرجل شعر بهيبته عندما رآه:

«هوِّن عليك، إننى ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة».

لقد زرع الرسول فى قلوب أصحابه الرحمة والعدل.. وعلَّم أصحابه ألا يقنطوا من رحمة الله، فالله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، لقد سمع الناس منه قوله عليه الصلاة والسلام:

«إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على ولدها، وأخَّر منها تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

«ولو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمن النار».

وهو مع أنه النبى المعصوم كان شديد الخوف من الله وكان يقول:

«إنى لنبى الله ورسوله، وما أدرى ما يفعل الله بى!».

وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره، وقد سمع يومًا ابن مسعود وهو يتلو قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]

فإذا بالدموع تسيل من عينيه!

هذه بعض المواقف من مواقفه.. وما أكثرها.. ولا يكفى للحديث عنها عشرات المجلدات.. ولكن هذا مجرد إشارة أصبع -كما قلت - لسجايا لا يمكن إلا أن تكون للنبى عليه الصلاة والسلام.. هذا النبى الذى هيأه الله ليكون المبلغ لأعظم رسالات السماء.

ولنقف عند بعض خُطبه لنرى كم فيها من البلاغة والفصاحة وجمال الكلمات، وروعة الأداء.. وأنها مشحونة بشحنة رائعة من جوهر الإسلام.. إن الإنسان ليقف طويلاً.. أمام روعة الكلمات ومغزاها.. يقول فى أحد خطبه:

«أيها الناس: إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. فإن العبد بين مخافتين: أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل به، وأجل بقى لا يدرى ما الله قاضٍ فيه.

فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات.

فوالذى نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار».

لقد أدى الرسول الأعظم الرسالة على أكمل وجه، وبعد ثلاثة وعشرين عامًا من الجهاد فى سبيل الله، انتشرت الرسالة فى كل أنحاء الجزيرة العربية، وكان قد مهد عليه الصلاة والسلام لخلفائه أن ينشروا نور الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها عندما أمر بمجابهة الروم فى مؤته، ثم اتجاهه بنفسه لملاقاتهم فى (تبوك) ولكن لم يجرأ الروم على تلك المواجهة وآثروا الصلح.

بعد ثلاثة وعشرين عامًا من النضال والجهاد والصبر الذى لا طاقة لبشر به إلا لمن كان من أولى العزم من الرسل، كان الرسول العظيم يشعر باقتراب الرحيل إلى جوار ربه الأكرم جل شأنه.

فتروى كتب السيرة أنه عندما بعث بمعاذ بن جبل إلى اليمن.. خرج معه يودعه، ودار بينه وبين الرسول حوار، ومعاذ يسمع من الرسول، فإذ به يفاجىء بالرسول الكريم يقول له:

«يا معاذ إنك عسى ألا تلقانى بعد عامى هذا،ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى!»

وبكى معاذ، وتوجه أعظم الرسل إلى المدينة وقال: «إن أولى الناس بى المتقون، مَن كانوا، وحيث كانوا».

وبعدها حج الرسول عليه الصلاة والسلام حجة الوداع التى خطب فيها خطبته الرائعة التى أوصى فيها المسلمين وعلمهم كيف يؤدون مناسك الحج، وحثهم على ضرورة تجنب الفتن والتمسك بكتاب الله

وسنة الرسول، كما أوصى بالنساء خيرًا.. وأثناء هذه الخطبة نزل قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]﴾ [المائدة: ٣].

وقد شعر بعض الصحابة أن هذه الآية تنعى الرسول عليه الصلاة والسلام، فماذا بعد إتمام الدين، وإكمال الدعوة إلا الرحيل!

ونرى العظمة مجسدة فيه منذ ولادته مرورًا بصباه وشبابه وشيخوخته، إنه حتى وهو يعانى آلام المرض الأخير، وقبيل أن ينتقل إلى جوار ربه، يخرج إلى الناس وهو مريض ويخطب الناس، إنه يريد أن يذهب إلى جوار ربه مطمئن الضمير لم يظلم أحدًا، وليس لأحد عنده دين، فيقول فيما قال فى هذه الخطبة الرائعة:

«أما بعد أيها الناس:

فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، فمن كنت قد جلدت له ظهرًا، فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت قد شتمت له عرضًا فهذا عرضى فليستقد منه. ألا وإن الشحناء ليس من طبعى ولا من شأنى.. ألا وإن أحبكم إلىَّ من أخذ منِّى حقًا إن كان له، أو حلَّلنى فلقيت الله وأنا طيب النفس! وقد أرى أن هذا غير مغنٍ عنى حتى أقوم فيكم مرارًا».

وصلى بالناس صلاة الظهر، ثم عاد فكرر عليهم ما قال وقال لهم:

«أيها الناس: من كان عنده شيء فليؤده، ولا يقل فضوح الدنيا، ألا إن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة.

أيها الناس: من خشى من نفسه شيئًا فليقم أدعو له».

فقام رجل وقال له:

يا رسول الله، إنى لكذاب، وإنى لمنافق، وما من شيء إلا جنيته.

فقال له الرسول: «اللهم ارزقه صدقًا وإيمانًا وصير أمره إلى خير».

وقام مرة أخرى يقول للناس:

«معاشر الناس قد حان منى حقوق من بين أظهركم، فمن كان له عندى شيء فليأتنى أعطه إياها، ومن كان له على دين فليأتنى أقضه.

أيها الناس إنه ليس بين الله وبين أحد نسب، ولا أمر يؤتيه به خيرًا أو يعزف عنه شرًا إلا العمل.

ألا لا يدعين مدعٍ ولا يتمنين متمنٍ.

والذى بعثنى بالحق لا ينجى إلا عمل مع رحمة، ولو عصيت لهويت.. اللهم قد بلغت».

واشتد المرض عليه، وانتقل إلى جوار ربه راضيًا مرضيًا، بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة وبذور بدور الإيمان فى القلوب، والروعة فى الصدور، وجعل من هؤلاء العرب الذين كانوا مثالاً للجهل والتخلف والتفرقة أمة واحدة، تدين بدين واحد، وتتجه إلى قبلة واحدة، وتحمل لواء حضارة جديدة، وفكر جديد وثاب، وفلسفة جديدة بثها فيهم هذا الدين الخاتم الذى جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين.

وما أروع تلك الكلمة التى قالها أنس بن مالك:

(لما كان اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ المدينة أضاء فيها كل شىء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم فيها كل شىء.. وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا ﷺ).

***